ليالي الداخلية

رواية تتناول حياة الكاتب ورفاقه من الطلبة في الداخلية """""دار الطالب ""بفجيج شرق المملكة المغربية في السبعينيات من القرن الماضي

تصوير للاحداث و نقل للصور المثيرة داخل فضاء الدار وفي المدينة منذ وصول الكاتب الى الداخلية 1974 حتى خروجه منها 1978

في ليالي الداخلية ،لم يمنع الجوع من وقوع أحداث غريبة بين الطلاب .ففي إحدى الليالي، وقد خلد الجميع الى مخادعهم وناموا ، قام أربعة من الطلاب وقد أجمعوا أمرهم على منكر سيأتونه ،وعلى انتقام سينفدونه . خرجوا من غرفتهم والظلام دامس يخفي الجسوم .انطلقوا متخفين .خفيفي الخطى صوب غرفة النوم المجاورة ،وفيها ينام طلاب حديثو العهد بالداخلية .أحدهم قدم من خلف الحدود .أمسكوا بورق لفه كبيرهم كما تلف السيجارة ،حمله في كفه كما تحمل الحجارة.تقدم ثلاثة منهم نحو سرير طالب علم كانت لهم معه ألف حكاية وحكاية ،أما الرابع فقد أشعل اللفافة ، حمل الثلاثة السرير على أكتافهم ،ثم ،وبعد أن وضعت اللفافة في فم الضحية ،رفعوا السرير ثم طرحوه مقلوبا فوق صاحبه .اشتد سعال الضحية بقوة .صار يتخبط محاولا ابعاده والاغطية عن جسده .بينا هو كذلك يتخبط لانقاد نفسه ،كان الأربعة يفرون هاربين يضحكون من شدة ما مكروا به .استيقظ النيام في تلك الغرفة على صراخه وأنينه

حاولوا فك أسره من تحت ذلك السرير الثقيل.دخل الأربعة الماكرون مخادعهم وتظاهروا بالنوم والشخير كأنهم على تلك الحال منذ أمد بعيد .كان صراخ وبكاء ذلك الطفل المسكين مرتفعا شجيا يمزق كل قلب رحيم .خرج المكلف بالحراسة بعصاه يبحث عن الجناة .قام الأربعة بين القائمين .ها هم بدورهم يسبون ويلعنون ويبحثون مع الباحثين عن الفاعلين ."""حشوما عليهم ""يقول أحدهم متظاهرا بعدم الرضا عما حدث ."هذا الشيء عيب ""يرد عليه صاحبه متظاهرا متأسفا والشماتة تغلف عينيه .كاد الضحية يختنق بسبب دخان تلك اللفافة .رآه تيمح يبكي وهو يجلس على سريره ،يمسح بكف دموعا ما كانت لتسيل لو لم يدَّعِ ما ليس فيه. لو لم يتعال على زملائه .لو تجنب استفزازهم وتخويفهم .حين قدم الى الدار وكان أحد أبناء المهجرين قسرا من الجزائر الذين تأخروا في الوصول الى المغرب ، أخبر الطلاب أنه وهو في الجزائر ،تعلم فنون القتال ،فنون الدفاع عن النفس .تعلم الملاكمة والمسايفة وفنون الكاراتيه -وهي أمور لم

يكن للنزلاء علم بها سوى ما يشاهدونه منها في سينما فجيج - صار يهددهم أينما حلوا وأينما ارتحلوا .يخوفهم في قاعة الإطعام وهم على المائدة ان لم يقدموا له القدر الكافي من الطعام . ترعبهم متوعدا في غرفة النوم إن أقلقوا راحته . يزرع فيهم الخشية والرهبة في الساحة، في خارج الدار إن ظهروا أفضل منه مظهرا ،هددهم بما يتقنه فيغلبهم ويعاقبهم إن تخلفوا عن تلبية ما يطلب منهم .لشهور وهم على تلك الحال يهابونه .يتحاشون الدوس على ظله إن مر أمامهم والشمس في علاها ساطعة .كان يرهبهم بحركة من هذه الرياضة ،أو أخرى بتلك فيتوجسوا خوفا .كانت نيتهم صادقة في الوثوق بما يقول .بما يملك من تقنيات. كانت براءتهم صادقة حين تحايل عليهم بمثل هذه الفكرة حتى يبعد شرهم عنه ويخضعهم .لم تمض أيام قليلة حتى اكتشف الزملاء زيف ما كان يدعي فهو -لا سياف ولا ملاكم ولا يفهم في فن الكاراتيه شيئا-

غادر ذلك الصبي الدار -متأثرا بما حدث له .خائفا من أن يعاودوا تأديبه -الى مدينة

أخرى لم يعلمها أحد من الطلاب قط .انتقل الى هناك يحمل أجمل ذكرى في حياته .سافر وقد تلقى درسا في اقتراف الكذب والإدعاء واحتقار الأصحاب.

وتستمر غرائب الداخلية في دار الطالب بفجيج ،ففي احدى أيام العطلة ،و الطلاب سيغادرون الدار الى مدنهم وقراهم بعد جهد جهيد في الفصول الدراسية ،قاموا بعد تناول وجبة العشاء الى مضاجعهم يجمعون أمتعتهم ويملؤون حقائبهم استعدادا للرحيل ؛حيث غدا سيستيقظون باكرين ،بعضهم قد حجز مقعده على ناقلة ""بنعمرو"" حيث ستغادر قبل طلوع الشمس بوقت طويل ،أما الأخرون ،فسينتظرون شروق الشمس لتقلهم ناقلة "حمدي وحيدا"" او باختصار وجيز ،ناقلة "زناقة" على الثامنة صباحا ؛في هذا الوقت والساعة على خط كرينيتش قد بلغت العاشرة ،حينها سُمعت أصوات رغيبة لأدوات معدنية يتم جرها على أرضية الممرات المؤدية الى الغرف المختلفة بالدار. كانت أصواتا عالية مرعبة تصم كل أذن .يحتك المعدن مع

الأرضية الصلبة فيحدث صدى مزعجا .هرع الكثير من الطلاب خارج غرفتي النوم يتقصون الذي يجري .ظهر هناك شبان على تلك الممرات يدفعون الأَسِرّة وهي من طابقين ،يدفعونها على أرضية الفسيفساء كأنها عربات قطار على سكك من حديد .كان الصوت قويا يخدش الأسماع ويؤديها .انضم البقية الى من سبقهم .ها هي الأسرة تخرج تباعا من الغرف .أصبح التصادم بينها ألعوبة يضحك لها المحتفلون ملء الأفواه .كان دوي التصادم يستدعي الإنتباه .مسموعا من بعيد .تعالى الصراخ يعاني صوت الأسرة يوقظ المزيد من النيام في الجوار القريب .على بعد أمتار من الداخلية ،كان مقر قيادة فجيج .أثار ما يحدث في الدار فضول أفراد القوات المساعدة الساهرين على حماية المكان ؛على حين غفلة من المحتفلين بانقضاء العام الدراسي ،سمع طرق قوي على الباب الكبيرة للدار .لم يفتح أحد .فالحارس كان غائبا تلك الليلة لحضور عرس في مكان ما كما تم تداول ذلك بين الطلاب .صار الدق على الباب

أعنف مفزعا .هرع أحدهم يفتحها ضاحكا لا يدري ما تخبئ له ،فإذا به يفاجأ بعناصر من الأمن يدفعون الباب بقوة ويدخلون .ثم ، وفي دهشة منهم ،وجدوا أنفسهم أمام القائد ،وصوته يملأ المكان توبيخا وتأنيبا لهم .نادى أحدهم وكان بعيدا بين النخلات يمسك بسريره يريد أن يدفعه """"القايد القايد"".لم يكد ينطق الكلمة الثانية حتى فر الجميع الى غرفتي النوم مذعورين ،اطفؤوا الأنوار داخلها وانتظروا .امتزج خوفهم بصمت مميت .الكل أصبح ينشد النجاة من العقاب .لم يغادر القائد مكانه .لكن أوامره باحضار كل من في الغرف كانت قد نُفذت في ثوان معدودات .همَّ الطلاب يخرجون تباعا. فرادى ومثنى وجماعات .كأنه يوم الحشر . تظاهر بعضهم بالنوم .يمسح على عينيه كأنه استفاق من نوم عميق لقرون .وقف الجميع أمام القائد صامتين ينتظرون مصيرهم في تلك الليلة الظلماء .ما تسمع من همس في المكان وما ترى من حركة. .كان الطلاب خائفين حقا .لم ينطق القائد جملا كثيرة ليزيد من خوفهم وندمهم على

ما فعلوه منذ لحظات ،لكنه اكتفى بجملة نزلت كوقع السيف على قلوبهم ""لن تذهبوا غدا الى مدنكم ،ستحضرون كلكم الى مفوضية الشرطة ."""أي نوم سينامه هؤلاء الذين كانوا قبل قليل يصنعون الصخب والشغب ولا يبالون .كان مركز الشرطة قريبا جدا من الداخلية .ولن يستغرق وصولهم اليه وقتا أو عناء .كان هناك عقلاء من الطلاب بالدار ممن لم يسلموا من إثارة الشغب .لم يكد القائد يغادر ،حتى تقدم أحدهم يقول ""سعادة القائد أرجو أن تسامحوا لهؤلاء ولن يعودوا الى ما فعلوه مرة أخرى ""تردد القائد قليلا ثم قال :'هيا الى أسرتكم ،ناموا .اذا بلغني أنكم عدتم الى ما فعلتكم فستبيتون في مركز الشرطة جميعا ""شكره ذلك الطالب العاقل وتظاهر بالصراخ في وجه الطلاب يدعوهم الى المغادرة الى غرفهم .حين طلع النهار ،كانت الدار خالية إلا من تلك الأَسرة والطاولات التي كانت شاهدة على ما دار في الليلة الماضية من حرب شوارع .

وتمضي الأيام ،تمر العطلة الصيفية سريعة ؛وها هو فصل الخريف يجر أذياله بالرعود والأمطار والرياح القوية .بدأت الاشجار تفقد أوراقها تتعرى .شرعت الأوراق الصفراء تزين أرصفة الشارع الطويل بفجيج .بدأ تيمح السنة الرابعة من الدراسة بهذه المدينة العريقة وعينه على الموسم المقبل في وجدة التي لم يرها في حياته سوى مرة واحدة .ها هو على موعد مع شهادة "البروفي"". اليوم سيدرس على يد معلمين كان ينظر إليهم قبل سنوات برهبة وترقب وشوق .في اليوم الأول ،دخل عليهم الفصل ""سي الطيب زايد"" معلم الفرنسية .دخل سي الطيب أستاذ الفرنسية الفصل ،فوقف الطلاب احتراما .قدم نفسه ثم انطلق يتحدث عن برنامج الفرنسة في السنة الرابعة من المستوى الثانوي كما كان يعرفه الناس يومها .كان الطلاب منتبهون لدرسه انتباه المصلين الى المنبر في يوم عيد .كان نحيفا ذا شعر أسود كثيفا .لم يرحم طلابه في بداية لقائه بهم ولو بكلمة من اللغة العربية تساعدهم على فهم ومجاراة ما يقول إتقانا وسرعة

.كانت تلك أول مشكلة تواجه الطلاب مع الأستاذ الجديد .أصبح عليهم وعلى تيمح الانصراف الجدي لمطالعة الروايات وخصوصا منها تلك المكتوبة باللغة الفرنسية .كان السي البشير وسي الشاهدي قد درباهم على ذلك من قبل ،وما كان عليهم والحال هكذا، إلا أن ينكبوا على ذلك بنهم .كانت المكتبة بثانوية سيدي عبدالجبار بفجيج أنداك مليئة كتبا .كتب على اختلاف أنواعها وألسنتها .قصص وروايات وكتب التاريخ وغيرها .كانت أوقات الفراغ والحصص التي يتغيب فيها المعلمون فرصة للنهل من معين تلك المكنوزات على رفوفها .ظهر تأثير السي الطيب على الطلاب واضحا مع أول فرصة لقاء .أصبحوا ملزمين باستغلال أي فرصة للتثقف ،لاكتساب معارف في المادة .بدا أن العام سيكون حافلا مع هذا الشاب الخفيف ظله. منذئذ ،صارت حصص سي الطيب فرصة للإبحار في طريقة تقديمه للدروس .تمتلئ السبورة السوداء كتابة عند بداية كل حصة .عند كل حصة يرتعد الطلاب وترتجف قلوبهم فرقا مما سيحدث

.سيطالب كل واحد بالقيام الى السبورة
.سيكون عليه أن يقرأ النص . سيكون عليه
ان يحلل النص أوالفقرة أو الجملة تحليلا
واقيا صرفا ونحوا وفهما .كان ذلك يمثل
تحديا كبيرا بالنسبة لهم .لم يكن الطالب
ليرضى أن تضحك منه فتاة من الطالبات
في الفصل ساخرة واستهزاء به إن أخطأ
في عبارة ، أو لم يحسن القراءة تلعثما
.مثّل سي الطيب في عقل تيمح نموذجا
للشاب الأنيق المهذب .مثّل في نفسه الجد
والاجتهاد والعالم الخارجي البعيد هناك
عن مدينته وعن قريته وعن فجيج .العالم
الذي لم يكن قد رآه بعد. عالم تختلف لغته
عن لغة تيمح .يختلف معتقده وطباعه عما
يعيشه في وطنه .رأى فيه تيمح وهو يتأبط
محفظته السوداء الدقيقة الخفيفة ، الأستاذ
الذي يمكن النفوذ الى قلبه .كان منفتحا
على الطلاب رغم جديته القاسية في درسه
.كانت سيجارته على الأصبعين ترسم أمام
عيني تيمح بدخانها الرقيق يتصاعد الى
الأجواء لوحات عالية الجمال للشخصية
الحالمة المثالية .تطبع في خياله صورا لما

وراء الهُناك .الى بحار الاتقان والإخلاص والتفاني في الأداء .

في ذلك اليوم ،وبعد حصة الصباح الطويلة المتعبة ،والفصل ربيع من أواخر شهر أبريل ،خرج تيمح الخائف من الرسوب ،خرج يسرع الخطى حتى يدرك سي الطيب .لم يكن ليجرأ على التحدث إليه خارج الفصل ، فذلك كان ضربا من الخيال ، ضربا من الجنون .لكن الحاجة اليه دفعت تيمح الى أن يخلع قناع الحياء ، قناع الخوف ، قناع التردد ,ناداه """أستاذ ، استاذ ، الله يحفظكم ، """انتبه اليه سي زايد .توقف .التفت اليه وخاطبه ""مرحبا ، ماذا هناك ، هل من مشكل ؟يمكنني مساعدتك أخبرني ""لم يتردد تيمح في طرح مشكلته والرجل قد فتح له نوافذ واسعة من قلبه ""أنا ضعيف جدا في مادة الرياضيات .لا أفهم فيها شيئا رغم محاولات الأستاذ في شرحها ،وأخاف أن يتسبب ضعفي في رسوبي .هل يمكنكم مساعدتي""" يقول تيمح بأدب ذلك الطفل الذي خاطب المعلم في قريته منذ عشر سنوات خلت وهو في الإبتدائي."أنت تبلي

جيدا في الفرنسية """يقول سي زايد باشاً
"""لكن ماذا عن مادة العربية وبقية المواد
؟"""أنا أدرس جيدا والأساتذة راضون عن
عملي ؛وتوجهي يا أستاذ سيكون أدبيا
""يجيب تيمح وقد ارتفعت معنوياته
وظهرت أمامه اشارات النجاح مرفرفة
بارزة المعالم."""يجعل الله خيرا إن شاء
الله ""يقول السي الطيب قبل أن يسلم
ويودع ."شكرا استاذي الله يرحم الوالدين
"""يرد تيمح وقد اعترته نشوة العمر .حين
وصل الى دار الطالب ،كان بعض الطلاب
قد تخلفوا في قاعة الاكل لم ينهوا طعامهم
بعد .لم يهتم باي طعام وقد فاته وقته .طلب
قليلا من الخبر من احدهم وانطلق الى
غرفة النوم يراجع دروس المساء على
سريره وصور مدينة وجدة تمر مر
السحاب في مخيلته بعد ذلك الحديث
الغريب مع أستاذه. في ذلك الموسم
الدراسي 1977/ 1978،كان السي الطيب
زايد واحدا ممن مكنوا تيمح من فتح عينيه
على العالم ،عالم الفرنسية ،عالم الجد